حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

دعوت الله ألا أرى القاهرة فى الرابع عشر من سبتمبر . وكنت مقيماً بين مزارعى وشواغلى إلى الثانى عشر منه ، فجد لى عمل هام يقتضينى سفراً اليها قد يستغرق يومين أو ثلاثة .

لست أكره الذكرى ، بل أعمل لها ، وعقيدتى أن ذكريات المحن كذكريات المنح فى نتيجتها . لأنها تشحذ العزائم وتبعد تكرار الأخطاء ؛ وليست ذاكرتى بالضعيفة ، وإنما تعذبنى فى الواقع بشدة إحساسها ، ولكنما خيل إلىّ أن أعصابى لا تحتمل شهود العاصمة المحبوبة فى ذلك اليوم !!! كبر على أن أشهد المدينة القاهرة الزاهرة التى عاش أهلها فى طهارة الاستقلال وعزه ، يعيشون منذ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ غارقين فى رجس الاحتلال وذله . . .

ما كدت أصل القاهرة مساء الثانى عشر من سبتمبر حتى استعرضت برنامج عملى على أن أعجل منه ما أستطيع وأرجىء منه مالا يضيره إرجاء . فلما أصبحت أسرعت الى عملى وفرغت منه فى نحو العاشرة صباحاً ، وذكرت على التو أن قطاراً يغادر القاهرة إلى بور سعيد فى الحادية عشرة ، وفى هذا زوال ما أخشى .

وأزمعت السفر لأعود بأسرتى من المصيف وقد قرب افتتاح معاهد الدرس ، وخيل الىّ أنى سأتلافى بسفرى جواً خانقاً ويوماً من الدهر خانقاً ! . .

سيتحقق إذن ما تمنيت على الله ، فلا أكون بالقاهرة يوم تشرق شمس جاء أصيلها على البلاد بمحنة المحن . فاذا جيش الاحتلال يدخل قلب البلاد ، وإذا نائب عن الخديو يلازم الجيش ! ! . . وهل شر من احتلال أجنبى يظله اضطراب لا يستقيم معه فكر ، ولا يتسق وإياه منطق ؟ ! ! .

الفكونت ولسلى يرفع لانجلترا فى قلب مصر رايه ؛ وسلطان باشا يؤمن تلك الراية باسم الخديو ! . وأين عرابى وأين الجيش ؟ وفيم كانت الحرب ؟ وأى فكرة تنطبع فى ذهن البلاد لصورة هى التناقض بذاته فوق ما تحمل من عار ؟ .

والله ما ابتلى شعب بمثل ما ابتلى به شعبنا فى ميدانى المادة والمعنى ، ولولا أن الشعب كان قوياً بدينه وتقاليده ، عظيماً بآثار المحن الغابرة فى عزائمه ، عزيزاً بكرامته ؛ لنالت منه الأحداث أضعاف مانالت ، ولو حلت بغيره لأفنته .

* * *

جلست فى القطار أتسلى بالقراءة ، واتفاقاً بدأت بكتاب صغير اشتريته من (كشك) ليقاداس بالمحطة — مؤلفه فرنسى — والكتاب عن حصار « باريس » سنة ١٨٧٠ .

أخذت أقرأ وفى نفسى أنى واجد فى وطنية الفرنسيين الهائمين بعاصمتهم ومجدهم ، وفى كفاءة الألمان وحسن تنظيم جيوشهم خير عبرة وتسلية . ولقد أجاد المؤلف فى المقدمة ، وفى وصف الحالة العامة ، ثم إذا به فجأة يتكلم عن باريس فى ١٩ سبتمبر ، فيصف الطوارىء ، وحالة الرأى العام وصعوبة التموين ، وضعف خطوط الدفاع ! .

إذن مازلنا فى شهر سبتمبر ! ولازالت هناك سلسلة من هموم فى ثناياه إذا خلفتها فى القاهرة ذكرتها عن باريس فى محنة مماثلة ! وفى المثل : يؤتى الحذر من مأمنه .

ما عتمت أن تمثلت بالكلمة الخالدة التى انتزعها من فم الرجل

الفصل الخامس : يدخل أبنير الهيكل المحصور سفيراً إلى الكاهن يحمل شروط أتالى الأخيرة وهى تسليم إلياسين ، وتقديم الكنز المدفون فى الهيكل ، فيجيبه الكاهن : لتدخل الملكة فتأخذ ماتشاء بنفسها . ثم ينصب فى أثناء ذلك عرشاً لجواس ، وتدخل أتالى المكان المقدس يحف بها ثلة صغيرة من الحرس وهى تقول : أين الغلام وأين الكنز ؟ فيريها الكاهن جواس على العرش ، ويقول لها : هذا كل ما بقى من كنز داود ! فتحتدم الملكة من الغيظ وتصيح : يالليخيانة ! ! يالليجند ! ! ولكن الجنود يأخذهم الفزع فيتمزقون شر ممزق ، ويقبض اللاويون على الملكة ويسحبونها خارج الهيكل ، ويذيقونها عذاب الموت بما كسبت ؛ ويقول جواد لجواس فى كلام طويل : « لا تنس ياملك اليهود أن للملوك قاضياً جبارا ، وللبرىء منتقما عزيزا ، وللبتيم أبا رحيما . ! ! »

(يتبع)

الزيات

الحزين سيدنا كعب بن مالك — خطاب ملك غسان اليه ؛ نقلت معه رضي الله عنه : « وهذا أيضاً من البلاء » (١)

يقول المسيو « سارسي » مؤلف « حصار باريس » بعيد إعلان الجمهورية : « وبينما يشتد ضغط الجيش البروسي وتتوالى انتصاراته وتكتمها الحكومة عن الشعب كنت كثيرا ما تسمع واحدا يقول لرفيقه : (إنهم لن يجرؤا على دخول باريس مادمنا حصلنا عليها) أي ما دمنا أعلنا الجمهورية فلن يجرؤ البروسيون على فتح باريس . »

وهكذا تلهى الباريسيون بإعلان جمهوريتهم عن الغرض الأساسي وهو حماية باريس من هجوم الأعداء .

أو لم نصب بهذا يوم أطلق سراح المرحوم سعد باشا زغلول وصحبه . ويوم ذهب اللورد ملنر يفاوض الوفد ، ثم يوم أعلن الدستور سنة ١٩٢٤ ففترت ثورتنا وتشتت شملنا ؟

كان لأحد أدباء باريس في ذلك العهد غرام بجمع المؤلفات الأدبية ذات الغلاف الأنيق . فاقتني منها ما يعد ثروة ضخمة رتبها في منزل بجوار باريس . ثم صدق ما كانت تردده الصحف من استحالة باريس على الهاجمين فمضى في تنسيق تراثه . ثم إذا به بين يوم وليلة يتحقق أن الصباح قد لا يشرق إلا منبراً بخيل العدو . أسرع بما استطاع حمله ، وآوى إلى أول فندق ثم استراح الراحة الأبدية ، فقد وجدوه ميتاً في بكور الصباح . وكان بذلك مجدود الحظ سعيداً . فلم ير سنابك الأعداء في العاصمة الحبيبة

وإذن لست أول الناس في هذا الشعور الذي أقض مضجعي قبيل ١٤ سبتمبر ولو أني لم أحظ بنصيبه ، فلعل الله يريني يوماً ميموناً بالخلاص .

* * *

أغرق أهل باريس في تحية الحكومة الجديدة بقدر ما أسرفوا في الطعن على الأمبراطورية وما جرت من ويلات ، حتى رسخ في ذهن الجمهور أن بروسيا لاتحارب فرنسا ، ولكنها تحارب الامبراطورية .

وقد يعجب القارئ إذا علم أن الأمبراطورية التي باتت مثالاً للشقاء في أعين الفرنسيين هي النظام بذاته الذي تأيد بثمانية ملايين من أصوات الناخبين قبل ذلك بشهر

ولقد كان موقف نابليون الثالث شبيهاً بموقف عرابي باشا ، ولعل الخير كل الخير كان في أن يموتا في ميدان القتال .

ليست العبرة فيما ينفع أنه يرضى الناس بادي الرأي ، وإنما العبرة في أن يكون نافعاً وكفى . ولا بد من تعويد النفس احتمال الكروب في سبيل العقيدة ، وثبات العزم على صحيح الرأي

ألف الجنرال « تروشي » في عهد الأمبراطورية كتاباً نقد فيه حالة الجيش وخطوط الدفاع من الوجهة الفنية نقداً أغضب الأمبراطور ورجال ذلك العهد حتى أضروه بسببه

فلما حوصرت باريس وبدا الضعف واضحاً في خطوط التحصين عادت بالشعب ذاكرته إلى الجنرال المؤلف وإلى كتابه ، ووصل الرجل وكتابه إلى الذروة ، ولكن الوقت لم يكن يسمح يومئذ بتنفيذ شيء مما أشار به .

ولا بد لنا — لأحاطة أخلاقنا بسياج يقيها العثرات — أن نرجع البصر إلى خطوات الماضي ، وإلى عظات من سبقونا من رجالات مصر — فذلك كفيل بحسن التوجيه .

شيء من الثبات ، وعود إلى آدابنا القومية ، وتقاليدنا الشعبية ، وشيء من الشجاعة الأدبية ، لنقول للمخطيء أخطأت ، وللمصيب أصبت .

جعل الله لنا في الماضي عظة ، وفي الحوادث عبرة . وجمع على الحق شتاتنا إنه كريم مجيب ؟

محمد محمود جلال
المحامي

---

(١) خلد الصحابي الجليل في سجل التاريخ مثلا أعلى لمتانة الخلق والثبات والصدق : أسلم وحسن إسلامه . ثم جاهد ، ثم تخلف عن إحدى الغزوات عن غير نية مبيتة . فلما مثل بين يدي الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام قدم بأنه أوتي جدلا ، ولكنه يصدق نبي الله الحديث فيعترف بأنه كان معافى قويا ممونا ولكنه تخلف . يعترف وقد يغضب الرسول ولكنه لا يحب أن يكذب فيسخط الله .

قاطعه المسلمون ، ولا يشرفه النبي بكلمة . وروعد بينه وبين زوجه — يسير في الأسواق فلا يجد من يرد عليه تحيته . وهو في كل ذلك صابر واثق من نفسه مقتنع بصدق نيته وهو في هذه الحالة من القطيعة يسمع مناديا باسمه ، فاذا تطلع اليه دفع اليه المنادي كتابا من ملك غسان يغريه بالهجرة اليه . يقول له « إن الله لم يجعلك بدار هوان فامض الينا نواسك »

ولكن كعبا رضي الله عنه يرى في عقيدته ومبدئه حصنا ومناعة فيأخذ الكتاب ويترقرق الدمع في عينيه ويقول : « وهذا أيضاً من البلاء » ثم يمضي إلى تنور فيسجر فيه الكتاب .